

## ابن الأَبَّار وعصره في تونس

### بقلم الذِّكُور رشاد الإمام

سنحاول في هذا البحث التركيز على محورين هامين يتعلقان بأمرين شغلا بالنا منذ زمن : الأمر الأوّل هو خلفيات مقتل العالم والشاعر ابن الأَبَّار (قتل 20 محرم 658/6 جانفي 1260) بتونس تنفيذا لأوامر المستنصر بالله الحفصي ، ثم حرق أشلائه وكتبه وإجازاته وأشعاره وأوراقه معه . وهو حدث يبعث في نفس الباحث الاستغراب من شدة هذا العقاب الرّهيب وعنفه ، ويحثه على البحث والتّحقيق عن خلفيات هذا الإجراء القادر حصوله في تونس ، خاصة وأنّه حصل والدولة الحفصية في عنفوان شبابها وفي أوج قوّتها وعزّتها من ناحية ، ومن ناحية ثانية نفّذ هذا العقاب المؤلم بل الغريب على أحد كبار علماء الأندلس البارزين المبجلين الذين شجّعهم الأمراء الحفصيون على الإقامة بتونس عاصمتهم بصفة نهائية ، وأزجلوا لهم العطاء والتّبجيل والتّكريم . الأمر الثاني الذي سنركّز عليه في هذا البحث هو محاولة إبراز أهميّة تواجد العلماء الأندلسيين في تونس وتأثيرهم في مختلف الاختصاصات والعلوم فيها ، والنهوض بتلك العلوم والمعارف إلى مستويات أرقى وأعظم ، بل إدخال طرق وأساليب وعلوم ومناهج ومواد دراسية ومهن وتقنيات جديدة انتفعت بها تونس إفادة منقطعة النظير في القرن 13/7 وما بعده .

وفي هذا الفصل الذي سنحاول فيه بحث أهميّة هجرة الأندلسيين إلى تونس في أوّل عهد الدولة الحفصية ، سنستقصي أيضا دور ابن الأَبَّار شخصيا ومشاركاته في

هذا التأثير العلمي والثقافي والحضاري الممتاز الذي يعود الفضل فيه إلى مهاجري الأندلس .

أولا : ابن الأبار ونكبته في تونس ، العوامل والخلفيات:

العصر الأول: حلّ أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أحمد بن أبي بكر القضاعي المعروف بابن الأبار بتونس سنة 1238/635 في عهد أبي زكرياء الحفصي (ت 1249/647)، مؤسس الدولة الحفصية المستقلة عن الموحّدين في المغرب الأقصى .

وكان أبو زكرياء وخليفته المستنصر (ت 1277/676) ومن تولّى بعدهما من أوائل خلفاء الحفصيين رجالا أقوياء وشدادا ، تفانوا في الدّود عن عرشهم وعن دولتهم الفتية التي لم يمرّ على تاريخ استقلالها رسميا سنة 1237/635 سوى عشر سنوات تقريبا لما حلّ ابن الأبار بحاضرتهم سنة 1238/636 . وقد نجح أبو زكرياء والمستنصر خاصة في إقامة دولة عتيّدة من سنة 1228/625 إلى 1574/982 . وهي أطول فترة تاريخية حكمتها دولة واحدة في كامل تاريخ تونس .

ومن سوء حظ ابن الأبار أنّه حلّ بتونس في عهد أعظم حاكمين حفصيين بل مؤسسي الدّولة وهي في عنفوان شبابها . ولا يخفي على أحد مدى غيرة مؤسس عرش جديد على حماية ذلك العرش وترسيخ أسسه مهما كلفه ذلك من تضحيات ، بل من عنف وبطش إذا اقتضى الحال ذلك . خاصة إذا وضعنا هذا الحدث في إطاره التاريخي أي في العصر الوسيط (القرن 13/7) .

ومن أوّل ما يجب أن نلاحظه في أسباب نكبة ابن الأبار وخلفياتها أنّ موازين القوى العرقية في المجتمع الإسلامي بدأت تتغيّر عما كانت عليه من قبل ، وخاصة بعد النكبات التي كانت تحلّ دائما بالموالي من بربر وفرس وأتراك على يد العنصر العرقي العربي الغالب والمتفوّق والحاكم . وهنا لنا أن نتذكّر نكبات عدّة عرقية مثل نكبة البرامكة ونكبة طارق بن زياد بعد عبوره وانتصاره في أوّل وقائع فتح المسلمين للأندلس وأعظمها .

قلنا تغيّرت الأوضاع وتبدلت الأسر الحاكمة القويّة خاصة في شمال إفريقيا والأندلس . فالحفصيون بربر قدموا من جبال الأطلس ببلاد المغرب الأقصى . وهذه

الترعة البربرية التي تجري في دماثهم كانت واضحة جدًا لدى الحفصيين سواء في طريقة حكمهم الصلبة أو معاملاتهم الحازمة مع رعيّتهم في الداخل ، أو مجابهاتهم الشرسة العنيفة والعنيدة للقوى والدّول الأجنبية التي كانت دائمة التهديد أو التخطيط للتّيل من سلامتهم واستقلالهم<sup>(1)</sup>.

لَمّا توفي أبو زكرياء الحفصي كانت كامل البلاد التّونسيّة من طرابلس إل بجاية تحت سلطته . وكانت أنظمة هذه الدولة الثّاسعة محكمة سواء في المجال السّياسيّ أو الإداريّ أو الأمنيّ ، وحتّى القبائل والعروش التي اعتادت على إحداث الإضطرابات وإعلان العصيان وإثارة النزاعات أُجبر أهلها على الانضباط والانصياع والطاعة .

عندما تولّى المستنصر حكم الدّولة الحفصيّة سنة 1249/647 واصل تركيز أعمدة الدولة بكلّ كفاءة وجدارة إلى أن بلغت دولته شأواً من المناعة والقوّة جعلتاه يتلقّب بخليفة المؤمنين .

وأصبحت الدّولة الحفصيّة تكاد تكون الدّولة الوحيدة في العالم الإسلاميّ التي يسود فيها الاستقرار والهيبة وبالتالي القوة والمناعة . وهذا ينطبق على البلاد الإسلاميّة بجناحيها المشرقي والمغربي .

وهذا السّودد يتجلّى في أنّ لويس الثّاسع لَمّا هاجم تونس في الحملة الصليبيّة الثّامنة سنة 1270/669 ، بعد مقتل ابن الأبار بعشر سنوات ، كان يظن أنّ بقضائه على الدّولة الحفصيّة القويّة في قلب العالم الإسلاميّ يكون قضى على أهمّ دولة في ذلك العالم الممزّق داخليا والمنهزم أمام القوى الأجنبية خارجياً<sup>(2)</sup> .

نعتقد إذاً أنّه من سوء حظ ابن الأبار أنّه نزل تونس ، وهو المتيمّ بحبّ السّلطة والتّفوذ ، والدّولة الحفصيّة الفتية في فترة التّدعيم والتركيز والتّشديد . وما أخطر تلك الفترات على رجالات الحكم والدولة ، وما أشدها حساسية وما أكثرها مآخذ وانزلاقات

---

H.R. Idris, «Hafsids» The encyclopedia of Islam, New Edition, (1)  
. Grill-Luzac, 1965, vol 3, pp 66-69

سنشير إلى هذا المرجع فيما يلي من هذه الدراسة بدائرة المعارف الإسلامية.

(2) الزركشي : تاريخ الدولتين ص 27 — 40 ط تونس 1966. و: ح. ح. عبد الوهاب : خلاصة تاريخ تونس ص 105 — 116 ط 1953 .

إنه لو تأخر حلول ابن الأبار بتونس سبع عشرة سنة فقط لوجد خليفة المستنصر سنة 1277/676 أكثر لنا وأقل جرأة لأخذ قرار القتل والتّمثيل والحرق فيه أو في غيره .

وإذا كانت الدّولة الحفصيّة في عصر فتوتها تلك من أعظم الدّول الإسلاميّة في المشرق والمغرب ، وكانت الدّول التّصرايّة تعمل على البطش بها<sup>(3)</sup>، فإنه بإمكاننا أن نتصوّر نار الغضب القاتل التي يحرق بها الخليفة كلّ متردّد في ولائه لتلك الدولة أو متشكّك في مقدرتها أو عامل على التّيل من مناعتها . إنّ وضع الدّولة الحفصيّة في خضم الأحداث في كامل حوض البحر الأبيض المتوسط يشبه وضع قوتين عظميين : الدّولة الحفصية من جهة والدّول التّصرايّة من جهة أخرى . كلّ منهما تعمل على البطش بالثّانية بأيّة وسيلة كانت .

ومن هذا المفهوم يمكننا أن نتصوّر حزم أمراء الدولة الحفصيّة وشدّتهم وعنفهم مع المشكوك في ولائهم ، أو المخالفين لأوامرهم أو المعارضين لملكهم ، أو النّاقمين والحاقدين عليهم من رجال دولتهم وأصحاب الخطط العليا فيها ، وغيرهم من الإطارات والأهالي في جميع مجالات أعمالهم ومسؤولياتهم ونشاطاتهم . فالإخلاص المطلق للدولة والتّفاني في خدمتها في تلك السّنوات الصّعب من تاريخ الدّولة الحفصيّة كان يقتضي الطّاعة الكاملة للخليفة والتّفاني والفداء بالنّفس من أجل الدولة وسلامتها داخليا وخارجيا . وهو ما لم يتوفّر بصفة قطعية في علامتنا ابن الأبار .

أما العنصر الثّاني من العوامل والخلفيات التي شاركت في القضاء على ابن الأبار وموته أشنع مיתה هو عنصر عرقي على ما أعتقد . وقد لمّحنا إلى هذا سابقا ، فقد ولد عالمنا الجليل سنة 1198/595 من عائلة عربيّة عريقة عريقة الجذور في نسبها القضاعي<sup>(4)</sup>. وتلقّى علومه في بلنسية على أيدي مشاهير العلماء الأندلسيين من أمثال أبي الربيع سليمان بن موسى بن سالم الكلاعي . وطاف أرجاء البلاد الأندلسيّة لتلقّي العلم والمعرفة على العلماء الكبار حيثما وجدوا . وقضى فترة طويلة من شبابه في طلب العلم من جهة والتّأليف من جهة أخرى . ومن هذه العلوم التي تلقّاها ، وتبرّز فيها ، وأصبح علما

(3) عبد الرحمان بن خلدون : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر . ط بيروت ، 1959 ، ج 6 ، ص 591 — 611 .

(4) عبد الله الطّباع : كتاب الحلة السّراء ، بيروت 1962 ، ص 14 ، 37 ، 40 .

من أعلامها سواء في الأندلس أو في شمال إفريقيا هو علم التّراجم والأنساب وذلك بالمعرفة الواسعة والتأليف والتّدرّيس . فنسب ابن الأَبّار العربي الأصيل ومعرفته المتعمّقة جدا بالأنساب والتّراجم ، وتميّزه لدى المؤرّخين بأنّه كان عينا من أعيان بلنسية بل شيخا (من مشيخة أهل بلنسية)<sup>(5)</sup>، جعل صاحبنا شديد الافتخار بنسبه العربي التّيّيل وسموّ أرومته على غيره ممن ليسوا عربا مهما كانت مراكزهم .

أوّل زيارة أذاها ابن الأَبّار إلى تونس كانت سنة 1238/636 لطلب النّجدة من الأمير الحفصي لإنقاذ مسقط رأسه مدينة بلنسية من الحصار المضروب عليها من طرف الإسبان التّصارى . ثم رجع إلى بلنسية وبعد أيّام معدودات التحق بتونس ثانية للاستقرار بها نهائيا ، بعد أن استولى خايمي الأوّل على بلنسية في 16 صفر 28/636 سبتمبر 1238<sup>(6)</sup>.

فحضوره إلى تونس كان من أجل طلب النجدة العسكرية من أبي زكرياء الحفصي . وما مبايعة أمير بلنسية وسكّانها له ، كما أعلن ابن الأَبّار ، إلا طمع في النّجدة العسكريّة الحفصيّة . ومما يدلّنا على أن سفارة ابن الأَبّار كانت ترمي إلى تحقيق نجدة أبي زكرياء العسكريّة قول السّفير — وهو ابن الأَبّار — في أوّل بيت من قصيدته السّينيّة الشهيرة التي ألفاها بين يدي الأمير الحفصي :

أَذْرِكْ بِخَيْلِكَ خَيْلَ اللَّهِ أَنْدَلُسًا إِنَّ السَّيْلَ إِلَى مَنْجَاتِهَا دَرَسًا

غير أنّ أبا زكرياء لم ينجدهم إلا بالآقوات والأعطية والمؤن<sup>(7)</sup> ولم يقدّم بأيّ عمل عسكري يستجيب لاستغاثتهم ويستهدف فكّ الحصار على بلنسية . يقول المؤرخون إنّ سفارة ابن الأَبّار كانت ناجحة<sup>(8)</sup>، وأنا أعتقد العكس تماما . وأمام هذه الخيبة في التّجّاح في سفارته يكون خسر ماء وجهه أمام أمير بلنسية من جهة وخسر مناصبه وممتلكاته في تلك المدينة بسبب الغزو المسيحي من جهة ثانية . ولم يتبقّ له من كل ما كسب إلا الغرور والعناد السياسي والشّعور بالتّفوّق العرقي فيما بعد في تونس .

(5) ابن خلدون : العبر . ج 6 . ص 652 .

(6) نفس المصدر .

(7) نفس المصدر ص 653 .

(8) نفس المصدر .

ولا تخفى أهمية الأنساب العريقة والمتميزة في الأسر العربية في مختلف العصور الإسلامية ، وخاصة في تلك الفترة . وكم شُيّدت ، في تاريخ البلاد الإسلامية قاطبة ، من دول وعروش بسبب النسب العائلي . والأمر الأكيد ، كما ذكرنا سابقا ، أنّ ابن الأَبار كان من أكثر علماء عصره معرفة بالأنساب العربية ودورها القاطع في التّبلّ والسّودد والسّيّادة . والأمر الأكيد الثاني هو أنّ ابن الأَبار كان بتأليفه وعلومه ودروسه ، على غرار تبخّره في علم الأنساب والتّراجم<sup>(9)</sup>، من أعظم مؤرخي عصره . وما مؤلفاته في التّاريخ والتّراجم إلا أكبر دليل على ما نقول .

على العكس من كلّ هذا كان أمراء بني حفص ، أولياء نعمة ابن الأَبار ، أبعد ما يكونون عن هذا التّسبب العربي الأصيل . فهم بربر في نسبهم وفي عصبيتهم وفي انتمائهم . ولا داعي هنا للتّأكيد على النّفور الذي كان مستفحلا بين البربر والعرب في تلك العصور سواء في الأندلس أو في شمال إفريقيا .

انتماء عرقي بهذه الحدة في الاختلاف وبهذه القوّة في الحساسيّة المفرطة والغيرة الصّارخة لا يمكن إلّا أن يجعل علاقة ابن الأَبار العربي القحّ وأسياده بني حفص البربر علاقة مبارزة عرقية واختبار نوايا وامتحان انتماءات .

لقد ذكر المؤرخون إشارات تدلّ على هذا الصّراع بين الطرفين من ذلك قول صاحب العبر (... ولما هلك الأمير أبو زكرياء رفعه (ضمير الغائب المفرد يعود على ابن الأَبار) المستنصر إلى حضور مجلسه ... وكان في ابن الأَبار أنفة وبأو (فخر وتكبّر) ... فكان يزري على المستنصر في مباحثه ويستقصّره في مداركه<sup>(10)</sup>. ويذكر نفس المؤلّف في مكان آخر أنه لمّا عاد ابن الأَبار من بجاية بعد أن رضي عنه المستنصر (... عاد هو (ابن الأَبار) إلى مساءة السلطان بنزعته...<sup>(11)</sup>).

ويقول حسين مؤنس في تعليل شناعة مقتل ابن الأَبار : (والحقيقة أنّ ما جرى لابن الأَبار كان حلقة من حلقات الصّراع بين الأندلسيّين والمهاجرين وشيوخ تونس من موحدّين وغير موحدّين ...)<sup>(12)</sup> .

(9) محمد مخلوف : شجرة النور الزكية ، القاهرة . 1350 هـ . ج 1 ص 195 .

(10) ابن خلدون : العبر . ج 6 . ص 653 .

(11) نفس المصدر ص 654 .

(12) حسين مؤنس : كتاب الحلة السيرة ، القاهرة ، 1963 ، ج 1 ، ص 40 .

وباعتبار كل ما سبق أرى أن الاختلاف العرقي كان واردا بين ابن الأتبار وأسياده من البربر ، وإن كان ذلك الخلاف في أغلب الأحيان مستترا جدا ، بل لم يكن من صالح أي طرف البوح به وكشفه بشكل صارخ .

**العنصر الثالث** من العوامل والخلفيات التي أدت بآبن الأتبار إلى التهلكة هو تمرّسه بالإدارة وتفوّقه فيها منذ أن كان في الأندلس ، بشكل جعله متميزا عن رجالات تونس ووزرائها وإداريّها . فقد تولى ابن الأتبار مناصب عالية في إمارة بلنسية ومنها السّفارة التي قام بها إلى تونس . وكذلك تولّى منصب الكتابة والمراسلة لأمير بلنسية وغيره من الأمراء . وبذلك كان متفوّقا على حاشية الأمير في تونس وعلى وزرائه إداريًا . ومن هذا الباب ، نعتقد ، دبت الفرقة وتكوّن الصراع على الخطط العليا ، خاصة منها المتصلة بخدمة الخليفة ومقابلته مباشرة فكان الصّراع على الجاه بين وزيرين أحدهما هو ابن الأتبار ذو المهارة السياسيّة والكفاءة الإداريّة مغربيًا<sup>(13)</sup> . والثاني هو أبو الحسين أحمد بن إبراهيم الغسّاني كاتب خطّ العلامة لدى الخليفة الحفصي ، وكانت براعته وكفاءته محدودة بل (محلية) بالمقارنة مع ابن الأتبار . وما حكاية سعاية الغسّاني لدى المستنصر ضدّ ابن الأتبار ، لأنّ هذا الأخير وصف والد الغسّاني بقوله : ( ... إن أبا لا تعرف حياته من موته لأب خامل)<sup>(14)</sup> ، إلا تهويل للأحداث وتضخيم لها . ولا يمكن أن تكون سعاية مبنية على مثل هذا التعريض سببا يؤدي إلى تمزيق السلطان الحفصي لأبن الأتبار ثمّ حرق أشلائه وكل مؤلفاته . هذا أمر لا يستقيم للتحليل والمنطق ، بل الأغلب أن سبب الوشاية هي التنافس على السّلطة ، أو مظهر من مظاهر الاختلاف في الاتجاهات السياسية بين الوزيرين . وهذا كلّهُ هو الذي سبّب وولّد المخاوف لدى السلطان من ابن الأتبار الأكثر قدرة وتمرّسا بشؤون الدولة سياسيًا وإداريًا ، وبالتالي خاف من غدره كما سيأتي .

**أما العنصر الرابع** فيتمثل في أن شاعرنا ابن الأتبار لم يستقر في تونس كمدرّس عادي أو موظّف بسيط أو شاعر مناسبات ، بل وُلّي خطّة كاتب علامة الأمير الحفصي

---

(13) يذكر ابن خلدون الخطط السّامية التي تولّاها ابن الأتبار قبل أن يحلّ بتونس بقوله : (وكتب عن السيّد أبي عبد الله بن أبي حفص بن عبد المؤمن بلنسية ، ثم عن ابنه السيّد أبي زيد ... ثم كتب عن ابن مردنيش . ولما دلف الطاغية إلى بلنسية ونازلها بعث نّيان بوفد بلنسية وبيعتهم إلى الأمير أبي زكريا وكان فيهم ابن الأتبار ...) (العبر : 654/6).

(14) المصدر السابق .

ورئيس كتابه ، وهي من أعظم وظائف الدولة ، وكانت تجعل صاحبنا في احتكاك مباشر مع الأمير في كل صغيرة وكبيرة ، وبالتالي كان ابن الأَبار مستهدفا لشكوك الأمير وغضبه . وهذا ما جعل أبا زكرياء يعزل ابن الأَبار من خطته ويضعه في الإقامة الجبرية في بيته تحت الحراسة . ثم عفا عنه فيما بعد وأرجعه إلى خطته . وكان الأمير كان حائرا بين شدة حاجته لكتابه من ناحية وعدم ثقته فيه من ناحية ثانية . هذا على الرغم من شفاعة المستنصر — قبل توليه العرش — فيه لدى والده أبي زكريا للعفو عنه لاستجارته به .

لما توفي أبو زكرياء أبقى المستنصر ابن الأَبار في وظيفته ، ولكن شكوك الخليفة في ولاء ابن الأَبار بدأت تتعاظم ، بناء على مواقف شاعرنا المشبوهة والتي كانت تستهدف الخليفة شخصيا ومباشرة بالخط من قيمته وسلطانه . وهو الأمر الذي ضاعف من غضب الخليفة وحاشيته وبعض المسؤولين في بلاطه إلى حد الأمر بإعدامه .

إذا يمكننا أن نعتبر الخطّة المرموقة التي تولّاها ابن الأَبار وقربه الشديد من الحاكم ، والتحامه اليومي الوظيفي والسياسي بصانعي ومتخذي القرارات السياسية في أعلى هرم السلطة وفي أوج قوة الدولة الحفصية ، عاملا أساسيا في نهايته المؤلمة .

**العنصر الخامس** غرور ابن الأَبار وتعتته وسلطة لسانه جعلته هدفا لانتقاد والتجريح والحقّد . فمن غروره وتعتته الغريب أنّ أبا زكرياء بعد أن عينه رئيس مكتبته ، أمره بأن يُبقي فراغا أبيض في أعلى كلّ وثيقة رسمية حتى يتمكن وزيره أبو العباس الفسّاني<sup>(15)</sup> من كتابة العلامة أي اسم الأمير وإمضائه . وقد كُلف بها لأن خطّه مشرقى يصعب على الكتاب في تونس تقليده . فلم يمثل ابن الأَبار لهذا الأمر من الأمير وتجاهله إطلاقا . ولما وقع الإلحاح عليه في ذلك استشاط غضبا ورمى بالقلم وأنشد قول المتنبي :

وَاطْلُبِ الْعِزَّ فِي لَطْفِي وَذَرِ الذُّلَّ لَوْ كَانَ فِي جَنَانِ الْخُلُودِ  
فَنُمِي ذَلِكَ إِلَى السُّلْطَانِ فَأَمْرُهُ بِلُزُومِ بَيْتِهِ فِي إِقَامَةِ جَبْرِية<sup>(16)</sup> .

(15) ابن خلدون : العبر . ج 6 . ص 653 .

(16) نفس المصدر .



وإذا كان أبو زكرياء مؤسس الدولة متحكماً في غضبه ومسيطراً على سخطه ، فإنَّ المستنصر مشيد الدولة والمتلقب بالخليفة ، والكثير الشكوك فيمن حوله ، وجد في سيرة كاتبه وتحذيه له ما لا طاقة له به. وزاد الطين بلة اتهام صاحبنا — بسبب ملازمته للأمير مباشرة ، وهو في قلب جهاز الدولة السياسي والإداري — بأنه يتوقع (المكروه للدولة)<sup>(17)</sup> ويتربص بها الدوائر .

**العنصر السادس :** عدم الولاء المطلق . والذي يدلُّنا على عدم ولاء صاحبنا لولي نعمته هو أن الخليفة المستنصر اكتشف في أوراق ابن الأبار عندما صودرت أبيات خطيرة في هجاء الخليفة وفي الحقد عليه<sup>(18)</sup> ، وهو ما عجل بمقتله .

**العنصر السابع :** بالإضافة إلى ما سبق اتهم ابن الأبار في تونس بالتشيع ولئن كان من الصعب تصديق هذا الاتهام لأسباب عديدة ، فإن الإطار الذي وضع فيه هذا الاتهام إطار قاتل . فقد وردت في كتابه «درر السمط في خبر السبط» ، الذي كان يدرسه ابن الأبار نفسه في حلقات تعليمه للطلبة في جامع الزيتونة ، إشارات فسرت بأنها تدل على ولاء المؤلف لشيعة علي وعلى عداوته للأُمويين السَّنيين<sup>(19)</sup>. لقد ذكر المقرئ بعد أن أورد قسماً من كتاب ابن الأبار (درر السمط) أنه كان متشيعاً لعلي وآله وأنه لم يورد من كتاب السَّمط لابن الأبار في كتابه نفع الطيب إلا ما ذكره (لأن في الباقي ما تشتم منه رائحة التشيع والله سبحانه يسامحه بمنه وكرمه ولطفه)<sup>(20)</sup> .

ومن الجدير بالملاحظة في هذا الاتهام الخطر أن البلاد التونسية تعتبر من أشد البلاد الإسلامية محاربة للشيعة والبدع وتشبثاً بالمذهب المالكي السني .

**العنصر الثامن :** ومن عوامل غضب السلطان وحاشيته على ابن الأبار تفوق علماء الأندلس وأدبائها وإداريها على أمثالهم بتونس في ذلك الوقت . وما تشجيع أبي زكرياء الحفصي لخيرة علماء الأندلس على الاستقرار بعاصمته إلا دليل قاطع على هذا التفوق

(17) نفس المصدر ص 655 .

(18) يذكر ابن خلدون البيت الأول من هذه الأبيات وهو :

طَعًا بتونس خلف سَمَوَه ظُلماً خليفة

(العبر . ج 6 . ص 655) .

(19) دائرة المعارف الإسلامية : 66/3 .

(20) المقرئ : نفع الطيب . ط القاهرة 1302 هـ . ج 2 ص 601 .

وعلى هذا التميّز وعلى الحاجة الملحة إليهم لبناء دولته ، الحديثة الاستقلال عن الموحدّين ، وبذلك بدأت الهجرة . ومن بين هؤلاء المهاجرين مجموعات من رجال الفكر من مختلف أنحاء البلاد الأندلسية .

ولا شك أيضا أن الأندلسيين المهاجرين إلى تونس ، ومنهم ابن الأبار قد شعروا بالتفوق العلمي والتميّز الحضاري لما حلّوا بتونس . وهذا الواقع ولّد لدى أغلبهم اقتناعا بتفوقهم على باقي المواطنين التونسيّين وبالتالي السعي للتسامي عليهم وتحاشي الاختلاط بهم .

وإذا كان المهاجرون الأندلسيون في القرن 17/11 قد عاشوا في تجمعات صغيرة خاصة بهم ، وانفردوا بلباسهم وطعامهم وتفاخروا بها ، وامتنعوا عن مصاهرة الأهالي المحليّين ترفعا — ومعظمهم كانوا من الصّناع والتّجار والمزارعين وأصحاب الحرف — فما بالك بمهاجري القرن 13/7 الذين كانوا في أغلبهم من كبار العلماء والأدباء والإداريين والأطباء والمدرّسين والفنّيين والكتّاب .

لقد بادر معظم هؤلاء بالتشبّث بطابع التفوّق حتى ظهروا في المجتمع التونسي وكأنّهم مجموعة من المهاجرين ناشرة عن المجتمع الذي انتقلوا إليه ، تراحم أفرادهم وتعاديلهم<sup>(21)</sup>، بل تصرّ إصرارا كبيرًا على تحدّيلهم<sup>(22)</sup> .

**العنصر التاسع :** هو جحود ابن الأبار إلى حدّ تميّنه زوال حكم الحفصيّين . يقول حسين مؤنس في مقدمته لتحقيق الحلة السيرة معلّلا مقتل ابن الأبار بأنّ ما حلّ بابن

(21) حسين مؤنس : الحلة السيرة ص 40

هناك قصّة تروى إلى اليوم في تونس وهي من مخلّفات أسمار القرون الماضية في الوطن القبلي بالبلاد التونسية أروها باختصار للتدليل على مدى عناد الأندلسي المهاجر بالبلاد التونسية ومدى تشبّثه بموقعه أو برأيه وإن كان على خطأ تقول هذه القصة الشعبية القصيرة إنّ أحد الأندلسيين المهاجرين كان يتنزه مع صديق له من التونسيّين الأصليين خارج إحدى المدن عند غروب الشمس . فرأى الأندلسي عن بعد شيئا أسود يتحرك على الطريق غير واضح المعالم . فقال لصديقه انظر رأيت ذلك السواد الذي يتحرك على الطريق . ثبت منه إنه قطيع من العنز تأخر الراعي عن الرجوع به إلى حضيرته إلى هذه الساعة ، فأجابه التونسي بعد التّثبت فيه جيّدا : هذا ليس قطيعا من العنز بل هو سرب من الغربان . ولما اقترب الصديقان من ذلك الشيء الأسود الذي يتحرك فوق الطريق ، طار سرب الغربان وعلا في الفضاء قال التونسي لصديقه : ألم أقل لك أنه سرب غربان وليس قطيع عنز فأجابه الأندلسي بحدة : (معيز أي عنز) ولو طارت) .

(22) حسين مؤنس : الحلة السيرة ص 40 .

الأبّار يعتبر حلقة من حلقات الصراع بين الأندلسيين وشيوخ تونس من موّحدين وغيرهم (بل حلقة من صراع هؤلاء المهاجرين الأندلسيين مع شيوخ كل قطر نزله وعلمائه...) (23) .

قد يكون هذا التحليل صحيح في بعض أوجهه ، ولكن عقوبة القتل بأشنع طريقة ثم حرق الجثة والمؤلفات وغيرها لا يمكن أن تكون ناتجة عن زلات صغيرة أو عدوات محدودة من ابن الأبّار . كان في إمكان الخليفة أن ينفيه أو يحبسّه أو يجبره على الإقامة الجبرية في بيته . ولكنه لم يفعل شيئا من كل ذلك بل أمر بقتله .

هذا التصرف من الخليفة المستنصر يتجاوز مرحلة احتمال خوفه من ابن الأبّار كما يقول حسين مؤنس . ولو كان السلطان خائفا منه فقط لما أجرقه بعد قتله وأحرق جميع مؤلفاته معه . بل هذا يدلّ أن السبب تجاوز الخوف الشخصي العادي إلى الخوف السياسي الذي يهدّد حكم العائلة الحفصية ويعمل على زوالها . وقد تدعّم هذا بقراءة ابن الأبّار لطالع ولّي عهد المستنصر وتصريحه بأن الدولة ستسقط في عهده . وهذه تعدّ في حدّ ذاتها جريمة سياسيّة لا تغتفر .

أعتقد أن هذه العوامل والخلفيات مجتمعة متكاملة متداخلة قضت على ابن الأبّار وليس عاملا واحدا منفردا منها مهما كانت قوته وتأثيره ، غير أن العامل السياسي كان هو الأقوى بينها جميعا .

## عصر ابن الأبّار في تونس

### 1 — هجرة الأندلسيين إلى تونس :

بدأت هجرة الأندلسيين إلى تونس تظهر منذ أوائل القرن 13/7 في عهد أبي زكرياء الحفصي الذي شجّع الأندلسيين على الإقامة في تونس . وقد أغراهم بالامتيازات لشدة حاجة الدولة الجديدة إليهم وإلى معارفهم في مختلف المجالات العلمية والفكرية والإدارية والأدبية والفنية وغيرها .

---

(23) المصدر السابق ص 40 .

ومن بين هؤلاء المهاجرين الأوائل المتميزين في مختلف الاختصاصات العلمية والفنية والمهنية قلّة من رجال الفكر ينتمون إلى أنحاء متعددة من البلاد الأندلسية : من كورة ماردة وميورقة وجزيرة شقر وقرطبة وطرطوشة ، وكذلك من بلنسية وإشبيلية وشاطبة وغرناطة ومالقة ولبله وبياسة وشريش وبطونة وشلب .

وقد كانت الوجهة المفضّلة لهؤلاء المهاجرين هي تونس بصفة خاصة لقيموا آمينين في ظلّ الدولة الحفصية ، بعيدا عن القلاقل والفتن بالمغربين الأوسط والأقصى .

ومن الجدير بالذكر أن حدس المهاجرين صدق في تفضيل المدن التونسية عن مدن المغرب الأقصى. فقد ذكر ابن خلدون أنه لما انقضت دولة الموحدين وظهر بنو مرين بفاس في المغرب الأقصى كانت لهم مشاحنات وخلافات مع الأندلسيين القاطنين بتلك البلاد . فكان الأندلسيون ينتقلون من المغرب ومن الأندلس رأسا إلى البلاد التونسية وخاصة العاصمة (24) .

عندما حلّ هؤلاء بتونس — وكان من بينهم ابن الأبار — كانت تلك المدينة — على الرغم من كونها، عاصمة الدولة الحفصية — تعد قرية كبيرة من جملة القرى التونسية . وما أن انتهى القرن 13/7 ، وهو القرن الذي نزح خلاله الأندلسيون ، حتّى تحوّلت تونس عاصمة للمغرب قاطبة وقبله العلماء ورجال الفكر والطلبة . وشيّدَت فيها المدارس والمكتبات والجوامع ، وانبثقت النهضة التي جعلت ذلك القرن يتميّز عن بقية العصور التاريخية في تونس إلى درجة يمكننا أن نطلق عليه عصر النهضة التونسية .

وقد تواصل تأثير الأندلسيين في تونس علميا وحضاريا وفنيا على مدى القرون الموالية . وذلك لسببين : الأول أن الهجرة الأندلسية لم تقف بانتهاء ذلك القرن بل تجاوزته إلى القرن 14/8 حيث قويت حركتها فشملت ، زيادة على العلماء ورجال الفكر ، التّجار والصّناع والمزارعين وأصحاب الحرف بأعداد وافرة . وقَدّم لهم أمراء الدولة الحفصية أحياء في المدن يقطنونها وضياعا في الريف يسكنونها ويعملون فيها . ويرجع لهؤلاء الفضل في إدخال أنواع من العلوم والاختصاصات جديدة وأساليب صناعية ومهنية وهندسية لم يسبق للبلاد أن عرفتها .

---

(24) ابن خلدون : العبر : 6 / 625 .

أما السبب الثاني الذي جعل تأثير الأندلسيين لا يزول من تونس فهو الأعداد الوافرة من الطلبة التونسيين الذين تلقوا علومهم عن أعلام أندلسيين في الحاضرة يندر وجود أمثالهم في كامل العالم الإسلامي في القرن 13/7 .

ومما تجب ملاحظته أيضا أن تأثير الأندلسيين في الحياة الفكرية والحضارية بتونس كان من طراز المؤثرات التي لا تزول بمرور السنين والقرون ، لأنها كانت متصلة اتصالا مباشرا ومتفاعلة تفاعلا كاملا ومتينا مع مختلف طبقات المجتمع التونسي وفئاته . فقد تداخلت أفكارهم العلمية والدينية وأساليبهم العملية في جميع الميادين الحياتية للمجتمع التونسي حتى صارت عنصرا من العناصر الحضارية التي يتكوّن منها ، وعادة من عاداته وتقليدا من تقاليده . فلو اقتصر تأثير الأندلسيين على مجالس الأمراء والأعيان لا تنتهي بانتهائهم . أما وتأثيرهم كان متفاعلا مع مختلف فئات السكان ، فإن ذلك التأثير لا يزول بزوال الأفراد بل يبقى ساري المفعول مكوّنا عنصرا هاما من العناصر الحضارية والفكرية والثقافية لأمة بأسرها .

في ذلك العصر ، عصر ابن الأبار في تونس ، شجّع أمراء الحفصيين المهاجرين الأندلسيين على نشر المعرفة بكل ما لديهم من وسائل ، فازدهرت المعرفة إلى أن أصبحت الحاضرة مقصد طلاب العلوم والفنون من أقاصي البلاد يقبسون من أنوارها ويرتوون من ينابيعها .

## 2 — تأثير الأندلسيين في النشاط الثقافي بتونس :

لقد جدّد الأندلسيون في تونس في القرن 13/7 عدّة مجالات في الميدان الثقافي وأدخلوا طرقا وأساليب واختصاصات حديثة كان لها تأثير مباشر وقوي في الحياة الثقافية بتونس .

ففيما يتعلّق بالمواد الدراسية أدخل المهاجرون الأندلسيون مواد دراسية جديدة في حلقات التعليم . من هذه المواد علم الفلك والأزياج والطب والهندسة وغيرها من العلوم<sup>(25)</sup>، بعد أن كانت المواد الدراسية في تونس قبل مجيء الأندلسيين متغلّبا عليها

---

(25) ابن خلدون المقدمة ص 880 . وكذلك :

. R. Brunschvig : La berberie Orientale, Paris, 1940, vol. p. 364

الطابع الديني واللغوي ، فكانت المواد التعليمية لا تخرج عن العلوم الشرعية التقليدية من توحيد وحديث وفقه وفرائض وعلوم القرآن والقراءات والسيرة والمغازي والتاريخ من جهة ، والعلوم اللغوية من نحو وتصريف وأدب وشعر من جهة ثانية(26) .

وبذلك التأثير الأندلسي في نشر العلم بتونس بمختلف ميادينه وفروعه صارت الحاضرة في ذلك العصر كما يشهد بذلك شاهد عيان: (لا تنشأ بها ضالة للعلم إلا وجدت ولا تلتبس بغية معوزة إلا استفدتها ... وما من فنّ من فنون العلم إلا وجدت بتونس من به قائما ولا موردا من موارد المعارف إلا رأيت حوله واردا وحائما)(27) .

وفيما يتعلّق بالمدارس في عهد ابن الأبار أنشئ كثير منها بتونس بمجيء الأندلسيين بعد أن كانت قليلة فيها . ولم تنتظم حلقات الدروس في جامع الزيتونة إلا في منتصف القرن 13/7 . ولم يزرغ القرن 14/8 حتى كثر عدد المدارس المخصصة لإلقاء الدروس وسكنى الطلبة ، وهذا يعتبر أكبر دليل على ازدهار الحركة العلمية بالعاصمة وبعض المدن التونسية الأخرى خاصة في عهد أبي زكرياء والمستنصر . ينضاف إلى ذلك الجوامع والمساجد التي كانت تعقد فيها حلقات التعليم وكذلك بيوت العلماء ومنازلهم . ومعظم دور العلم تلك كان يدرّس بها أولئك الأعلام من اللّاجئين الأندلسيين .

ومن هذه المدارس المدرسة الشّماعية ومدرسة المعرض والمدرسة التوفيقية والمدرسة العنقية ومدرسة ابن تافرايين ومدرسة جامع الهواء ، ومن الجوامع : جامع الزّيتونة وجامع القصبة ، ومن الزّوايا : زاوية الزّليجي .

هذا عدا المكتبات ودكاكين الورّاقين التي أنشئت في تونس في ذلك القرن الزاهر وفي عهد أبي زكرياء بالذات ، وهو ما يدلّ على رواج سوق العلم وانتشار الثقافة بالبلاد التونسية . ومن هذه المكتبات الشهيرة مكتبة جامع الزيتونة التي كانت تشتمل على ستة وثلاثين ألف مخطوطة(28) . يذكرها ابن خلدون بقوله : (كان الأمير أبو زكرياء

---

(26) العبدري : الرّحلة . ص 125 — 126 ، 176 — 178 .

(27) المصدر السابق ص 125 .

(28) ابن أبي دينار : المؤنس ص 127 .

الأكبر جمعها واستجاد أصولها ودواوينها<sup>(29)</sup>. ومن المكتبات أيضا دار الكتب بالقصبة التي أسسها نفس الأمير، وكان مولعا بالأندلسيين وعلومهم وثقافتهم . وشيد كذلك سوقا بأكملها سميت سوق الكتبيين بالعاصمة<sup>(30)</sup> ، ولا زالت أجزاء من هذه السوق موجودة إلى الآن ، وهذا كله يؤكد مدى ازدهار الحياة العلمية في عصر ابن الأثير .

غير أن هذه المكتبات لم تمض عليها سبعون سنة بعد وفاة أبي زكرياء حتى أباد محتوياتها وباع مخطوطاتها الثائر ابن اللحياني سنة 1317/717 . فلم يبق فيها شيئا ذا أهمية (حتى الكتب التي كان الأمير أبو زكريا الأكبر جمعها واستجاد أصولها ودواوينها أخرجت للوراقين فبيعت بذكائهم . فجمع من ذلك كما زعموا قناطر من الذهب تجاوز العشرين ، وجواليين من حصى الدر والياقوت ...) <sup>(31)</sup>.

### 3 — تأثير الأندلسيين في مجال العلوم في القرن 13/7 .

الطب : كان أهم أساتذة الطب في تونس في القرن الذي ندرسه أندلسيين ، ليس بينهم تونسي واحد ولا يهودي حسب ما توفره لنا المصادر التي رجعنا إليها في هذه الدراسة . وتكفي هذه المعلومة لتؤكد على الدور الأساسي والمصيري الذي يمثلته الأندلسيون في المجال العلمي . من هؤلاء الأطباء حكيم المستنصر المشهور محمد ابن أندراس المرسى <sup>(32)</sup> .

يصف الغرييني أستاذه في علم الطب ابن أندراس بقوله : ( ... وتبسط للطب طبيا باحثا جيدا ... وكانت الأبحاث في كل ذلك جارية على القوانين النظرية والاستدلالات الجلية <sup>(33)</sup> .

---

(29) ابن خلدون : العبر . ج ص 748 .

(30) ابن أبي دينار : المؤنس . ص 130 .

(31) ابن خلدون : العبر . ج 6 . ص 748 — 749 .

(32) هو أبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد الأموي المعروف بابن أندراس من أهل مرسية ( ت .

1275/ 674 ) . ورد على بجاية ثم رحل إلى تونس باستدعاء المستنصر له بعد أن ذاع صيته في

الطب (أبو العباس الغرييني : عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في بجاية، الجزائر 1910 ،

ص 45 — 47).

(33) المصدر السابق .

كان هذا الطبيب إذا سئل عن مسألة طبية لا يجيب عنها إلا بعد إعمال النظر في أسباب المرض وتمييزها ، وينظر في أنسب الأدوية وعندئذ يقدم الجواب . وهذا كما يذكر تلميذه (هو حال حذاق الأطباء وأما عوامهم ومن يعد منهم في أعداد القوابل فعندما يُسأل يجيب بغير علم)<sup>(34)</sup> .

بالإضافة إلى هذا الطبيب العالم هناك عدة أطباء أصلهم من الأندلس ، منهم أبو العباس أحمد بن خالد من أهل مالقة<sup>(35)</sup> . ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمان الخزرجي الشاطبي (ت . 1291/691) ، وكذلك أبو عبد الله محمد بن يحيى بن عبد السلام أصله من تدلس<sup>(36)</sup> . ومنهم محمد بن أبي العباس بن عيشون .

وتواصل حلول أطباء أندلسيين بتونس في القرن 14/8 ، ومنهم الغرناطيان أحمد ابن علي الخولاني<sup>(37)</sup> وأحمد بن محمد الأنصاري<sup>(38)</sup> ، وابن عثاب القرطبي<sup>(39)</sup> وابن الحجاج يوسف<sup>(40)</sup> .

وبسبب وجود الأطباء الأندلسيين في تونس في القرن الذي ندرسه صار علم الطب بها يقوم بالدرجة الأولى على التحاليل وعلى فحص وتشخيص المركبات الأساسية التي تتعلق بكل جسم وبكل عضو ، مع اهتمام كبير بمعرفة خصوصيات ومركبات المواد الغذائية . وقد نتج عن ذلك شيوع التجديد في طبخ المأكولات بطريقة تطابق ما أدخله هؤلاء الأطباء من آراء طبية تتعلق بالمواد الغذائية<sup>(41)</sup> .

ويمكننا أن نعرف الشأو الذي بلغته تونس في المجال الطبي في القرن 13/7 بتفضّل الخليفة المستنصر وإرساله أحد الحكماء الأندلسيين من تونس إلى ملك صقلية . ومثل

---

(34) المصدر السابق .

(35) عنوان الدراية : ص 43 — 44 .

(36) المصدر السابق ص 208 .

(37) أحمد بن علي بن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، حيدر أبا الدكن . 1929

— 1931 ، ج 1 . ص 219 .

(38) نفس المصدر ج 1 . ص 306 .

(39) نفس المصدر ج 4 . ص 160 .

(40) عبد الله الترجمان : تحفة الأريب في الردّ على أهل الصليب ، القاهرة 1907 ، ص 8 .

(41) انظر برانشفيك : ج 2 . ص 138 — 139 .



هذا حدث سنة 1278/677 حيث بعث المستنصر للملك شارل الأول ملك أنجو Anjou ، بطلب من هذا الأخير ، كتاب (الحاوي في الطب) للرازي(42) .

**الهندسة :** أثر وجود المهندسين الأندلسيين على التخطيط المعماري والبناء في البلاد التونسية في القرن 13/7 . وأصبح الطراز الأندلسي هو الغالب على أكثر الأبنية التي شُيّدت في ذلك القرن . وقد استجلب أبو زكرياء عددا كبيرا من المهندسين والصناع الأندلسيين ، وهم الذين قاموا بهندسة وبناء أكثر القصور والجوامع والزوايا والأسواق التي أنشئت في عهد هذا الأمير . وقوي هذا التأثير بعد وفاة أبي زكرياء والمستنصر(43) . وهذا النمط البنائي الأندلسي نلاحظه بصفة جلية في بناءات القرن 13/7 في تونس مثل هندسة وبناء جامع القصبة الذي تم بناؤه سنة 1235/633 مع صومعته . وقد وصفها صاحب (المؤنس) بأنها كانت عجيبة الشكل(44) . وكذلك يظهر ذلك النمط الهندسي جلياً في المباني والمعالم التالية : باب المنارة بالعاصمة ، باب للآريحانة وهو أحد أبواب الجامع الكبير بالقيروان(45) . ومن هذا القليل هندسة بناء أقواس (سوق القماش) و (مبضة سوق العطارين) وزاوية سيدي قاسم الجليزي(46) .

ومثا يزيد في تركيز هذا الطابع المعماري الأندلسي وإبرازه: التصميم والهندسة والبناء بالإضافة إلى وجود الزليج في أكثرها(47) ، وكذلك اعتمادها في الزركشة على النقش فوق الجدران ، والسطوح المغطاة بالقرميد(48) .

**علم التاريخ :** على غرار علوم الطب والهندسة والتحو لا يجد المستقصي للمؤلفات التاريخية التي كتبت في القرن 13/7 بالبلاد التونسية كتابا واحدا كتبه مواطن أصله تونسي .

(42) المصدر السابق .

(43) Ch. A. Julien: Histoire de l'Afrique du nord, vol 2, p 153 .

(44) ابن أبي دينار : المؤنس ص 127 .

(45) ش.أ. جوليان : 414/2 .

(46) G.-Marçais: Manuel d'art musulman, 2 vols, Paris 1926 p 527 .

(47) الزليج كلمة إسبانية أصلها Azulejo .

(48) سليمان مصطفى رئيس : بين الآثار الإسلامية في تونس ط . تونس 1963 ص 52 .

أول هذه الكتب ألفه أندلسي من بياسة وهو أبو الحجاج يوسف بن أحمد الأنصاري (ت 1255/653)، ألفه لأبي زكرياء وذكر فيه الثورات والحروب الداخلية في الإسلام إلى عهد هارون الرشيد . وقد نشر هذا الكتاب حديثا ويعتبر من أهم المصادر في موضوعه. أما كتاب أبي محمد عبد الله بن عبد البر التنوخي (ت 1336/737) — ويشتمل على التاريخ الإسلامي من الدعوة المحمدية إلى أيام المؤلف — فمفقود ولا نعلم عنه إلا أنه مرتب على حسب السنوات الهجرية مثل تاريخ الطبري وأنه يتكون من ستة أجزاء<sup>(49)</sup> .

هذا بالإضافة إلى عدد كبير من العلماء الأندلسيين الذين كانوا يدرسون التاريخ في معاهد العلم ، منهم ابن عبد البر التنوخي<sup>(50)</sup> ، وابن الغمّاز<sup>(51)</sup> ، وابن الأبار نفسه ، وكتابه (درر السمط في خبر السبط) كان مادة تاريخية تدرّس في المعاهد العلمية بتونس . هذا بالإضافة إلى كتب التراجم والطبقات التي ألفها أندلسيون في تونس خلال ذلك القرن .

**التعليم :** ولا يقف تأثير الأندلسيين عند هذا الحد بل يتجاوزه إلى مجالات أخرى ثقافية وعلمية وصناعية متعددة مثل التعليم . لقد اقتبس التونسيون منذ أوائل العهد الحفصي طرق التعليم المتطورة عن الأندلسيين . ولا ننسى هنا أن أبا زكرياء الحفصي مؤسس الدولة ورائد نهضتها العلمية والحضارية تنقّف على علماء أندلسيين أو عن تلاميذهم كابن عصفور الإشبيلي الذي أخذ عنه علم النحو ناظره فيه<sup>(52)</sup> . وقد أعجب أبو زكرياء بالطريقة الأندلسية في التعليم واستصوبها . ولمس حاجة تونس إليها وإلى العلماء الأندلسيين فاستدعى من إشبيلية — وقد أصبح سيّد إفريقية وكان في السابق حاكما لمقاطعة تابعة لها — عددا من أصحاب الصناعات المختلفة منهم العلماء للقيام بمهمة التعليم بتونس<sup>(53)</sup> .

(49) الزركشي : تاريخ الدولتين الموحّدة والحفصية ص 111 — 112 .

(50) المصدر السابق .

(51) البغدادي : الرحلة . ص 126 .

(52) مخلوف : شجرة النور الزكية ، ج 2 ص 138 .

(53) كانت عائلة خلدون من هذه العائلات التي جلبها أبو زكرياء من إشبيلية ، أحد أبناء خلدون هذا أصبح وزير مال ، وابنه محمد حاجبا ثم وزيرا ، وابن محمد هذا كان رجلا علم ودين تولّى خطة الإفتاء بتونس أما حفيد محمد المذكور فهو عبد الرحمان ابن خلدون المؤرخ التونسي الشهير (ولد سنة 722 وتوفي سنة 808 / 1322 — 1405) (انظر كتاب ج . مارسي السابق ص 303) .

وقد أشاد المؤرخون بتفاني هؤلاء العلماء المدرّسين في بثّ العلم والمعرفة في حلقات دروسهم<sup>(54)</sup>. ومن أشهر هؤلاء أبو العباس أحمد بن الغمّاز البلنسي (ت 1293/693)، وأبو العباس اللبلي<sup>(55)</sup> وأبو العباس أحمد المالقي، وأبو العباس أحمد الغرناطي (ت 1292/692) صاحب كتاب المُشْرِق في علماء المغرب والمُشْرِق. وكان الخليفة أبو زكرياء بن أبي إسحاق الحفصي (حكم من سنة 678 إلى 1279/683 إلى 1284) يحضر دروسه بمدرسة المعرض في العاصمة التونسية. ولما رأى الخليفة مدى تفاني ذلك المدرّس في أداء وظيفته، وما اتّصف به من تبخّر في العلوم أجرى عليه مرتبًا عاليًا، وأعطاه كيسين مملوءين ذهبًا وفضّة ليوزّعهما على كلّ من يتلقى العلم في حلقات دروسه<sup>(56)</sup>. ويضيف المؤلّف أن ذلك الإجراء من قبل الأمير الحفصي، شجّع الطلبة على التعلّم بتلك المدرسة فازداد عددهم حتى أنّه لم يبق لبعضهم محلّ يجلسون فيه. ويبلغ إعجاب الأمير بالدروس التي تُلقَى بتلك المدرسة حدّا جعله يفتح بها شبّاكا على بيته يستمع منه إلى الدروس ويراقب سير التّعليم بها<sup>(57)</sup>.

أما طريقة التّعليم الجديدة التي أدخلت على أيدي الأندلسيين إلى تونس في القرن 13/7، فقد أشاد بها ابن خلدون حيث أنها تحرّرت من المنوال التّقليدي الذي يتمثّل في استظهار النصوص عن ظهر قلب و التّركيز على تعليم علوم القدامى كما تداولتها الأجيال. وأصبح التّعليم يعتمد على إطلاق المجال للعقل في التّفكير والتّعليل وتحليل الآراء ودراستها ومناقشتها. يصف ابن خلدون أصحاب الطريقة التّعليمية التّقليدية بقوله: (نجد طالب العلم منهم بعد ذهاب الكثير من أعمارهم في ملازمة المجانس العلميّة سكوتا لا ينطقون ولا يفاضون... فلا يحصلون على طائل من ملكة التّصرّف في العلم والتّعليم. ثم بعد تحصيل من يرى منهم أنّه قد حصلّ تجد ملكته قاصرة في علمه إن فاض أو ناظر أو علّم. وما أتاها القصور إلّا من قبل التّعليم... وإلّا فحفظهم أبلغ من حفظ سواهم لشدة عنايتهم به، وظنّهم أنّه المقصود من الملكة العلميّة وليس كذلك)<sup>(58)</sup>.

(54) العبدري: الرّحلة ص 385.

(55) المصدر السابق ص 126.

(56) E. Fapau : Chronique des Almohades et des Hafides attribué à Zarkachi, 1895, p. 73.

(57) المصدر السابق. ص 78.

(58) ابن خلدون: المقدّمة ص 780.

ويذكر ابن خلدون بالإضافة إلى ما سبق مقارنة أخرى بين الطريقتين في التعليم في ذلك العصر فيؤكد بها ما للطريقة الحديثة من جدوى ، وذلك عندما يعلمنا أن المدة التي كانت معينة لسكنى طلبة العلم بالمدارس عند أهل المغرب الأقصى مدة طويلة جدا وهي ست عشرة سنة . أما بتونس حيث تطبق الأساليب التعليمية الحديثة فإن المدة لا تتجاوز الخمس سنوات فقط . وهي أقل مدة متعارف عليها بالمدارس في ذلك الوقت . ثم يعقب مؤرخنا الشهير بقوله (فطال أمدها في المغرب لهذه المدة لأجل عسرها من قلة الجودة في التعليم خاصة ، لا مما سوى ذلك) (59) .

لقد ازدهرت طرق التعليم الناجحة في تونس بسبب التجديد فيها والتحديث في أساليبها كما رأينا ، وبسبب وجود المدرسين الأندلسيين العلماء ووفرة المدارس المستحدثة . وهذا من شأنه أن يلقح الأفكار ويشحذ الأذهان ويزيد في طلب المعرفة ونشرها . ولقد ازدهرت طرق التعليم والتدريس في تونس في القرن 13/7 إلى درجة جعلت المدرسين بالمغرب الأقصى يبعثون بأساتذة من بلدانهم إلى تونس للتدرب . وقبل رجوعهم إلى أوطانهم كانوا يُمتحنون قبل تسلمهم خطة التدريس في مدارس بلادهم . وكان هذا الامتحان يشتمل ، من جملة ما يشتمل ، على معرفة مدى حذق المدرس في التبليغ واعتماده على المناقشة والتعليل والاستنتاج لا على الحفظ والاستظهار (60) .

واعتمادا على ما لاحظناه ، فيما تقدّم من هذه الدراسة ، من تأثيرات إيجابية مبدعة للأندلسيين في تونس في مختلف المجالات الثقافية والعلمية وغيرها ، فإنه لا يسعنا إلا أن ننوّه بنظر أبي زكرياء الحفصي الثاقب وذكائه الحاد وصواب رؤيته المستقبلية لما اقتنع من أول وهلة ، لما تولّى الحكم بإفريقية أنّ حاجة تونس وازدهارها ومستقبلها لا تتحقّق كما يتصوّره إلا بجلب أعلى الإطارات في مختلف الاختصاصات من بلاد الأندلس . لقد عاش أبو زكرياء حضارة الأندلس وتقدّمها وتفوّق علومها وتقنياتها وتشبّع من تمدّنها . ولا شكّ أنّه صُعق لما انتقل إلى تونس حيث وجد البون شاسعا جدا بين البلدين والهوة سحيقة بين العدوتين . ولم يجد بدا من إغراء رجالات الأندلس المتميّزين لجلبهم إلى تونس من أجل بعث ثورة علمية وثقافية في حضرة دولته

(59) المصدر السابق ص 780 — 781 .

(60) المصدر السابق ص 109 .

الجديدة ، وقد أرادها أن تكون مثل مدينة إشبيلية وقرطبة وغرناطة من بلاد الأندلس في علومها وصناعاتها وهندسة بناءاتها . وقد بلغت دولته العزّ والسؤدد في عهد خليفته المستنصر بالله، حيث صارت تونس كعبة العلماء والأدباء والمؤرخين والمدرّسين .

يذكر ابن خلدون بلاط المستنصر بقوله : (وكان شأن هذا المستنصر في ملوك آل أبي حفص عظيما وشهرته طائرة الذكر بما انفسح أمد سلطانه ... ومما اجتمع بحضرته من أعلام الناس الوافدين على أبيه وخصوصا الأندلس من شاعر مفلح وكاتب بليغ وعالم نحري ... متفيعين ظلّ ملكه متناغين في اللياذ به لطموس معالم الخلافة شرقا وغربا على عهده ، وخفوت صوت الملك إلا في إيوانه)<sup>(61)</sup> .

#### 4 - ابن الأبار ومشاركته في نهضة تونس في القرن 13/7:

في خضمّ إنجازات المهاجرين الأندلسيين في حاضرة الحفصيين في القرن 13/7 حلّ أبو عبد الله ابن الأبار بإفريقية ليقوم في العاصمة كمواطنيه الأندلسيين . وكانت له المشاركة الفعالة في العطاء علما وأدبا ، وشعرا وثقافة .

آلف ابن الأبار ما يزيد على الخمسة وأربعين كتابا في فنون مختلفة . وليس ذلك بغريب ، فقد كان علامة (في الحديث ولسان العرب ، بليغافي التّرسل والشعر)<sup>(62)</sup> . ويصفه صاحب شجرة التّور الزكية بأنه (الإمام الحافظ النظار ، الرّواية المتبحر في العلوم ، الحامل لواء المنثور والمنظوم)<sup>(63)</sup> . ويقول فيه أيضا : (ومن اعتنائه بالرّواية لا يكاد كتاب من الكتب الموضوعة في الإسلام إلّا وله فيه رواية إما بعموم أو بخصوص)<sup>(64)</sup> .

بالنسبة إلى التاريخ. كان عمدة فيما كتبه عن الأندلس والمغرب . وقد انتفع في تواريخه المتعلقة بإسبانيا بكتب المؤلفين السابقين . (وهو بالنسبة إلى تاريخ بني هود في سرقسطة والمرابطين والموحدين مصدر في غاية الأهمية . وقد وصف لنا أحوال

(61) ابن خلدون : العبر . ج 6 . ص 675 .

(62) ابن خلدون : العبر ج 6 . ص 653 .

(63) محمد مخلوف : شجرة التّور ج 1 . ص 195 .

(64) نفس المصدر .

دولة الموحدين في أواخر أيامها ، وكذلك فتوح التصاري في الأندلس وصف معاصر وشاهد عيان(65) .

أما عبد الله الطَّبَّاع فعند حديثه عن ابن الأَبَّار باعتباره مؤرخا يبرز أهميته وتفوقه بقوله : (... وقد درست بعد ذلك قيمة ابن الأَبَّار العلمية والتاريخية مبرهنا أن مؤرخنا بالرغم من أن ابن خلدون لم يأت على ذكره بين كبار مؤرخي العرب ، فهو يستحق أن يحتل مكانته بينهم كمؤرخ الأندلس وإفريقيا الشمالية وأنه من حقّه أن نذكر اسمه إلى جانب اسم ابن حَيَّان ، أكبر مؤرخي الأندلس الإسلامية ... لقد أكدت في النهاية أن مؤرخنا ابن الأَبَّار كان أول من خطا من بين المؤرخين العرب ، نحو نقد التاريخ ، هذه الشهرة التي اكتسبها فيما بعد ابن خلدون(66) .

وفي التراجم كتب ابن الأَبَّار عدة مؤلفات منها التكملة لكتاب الصلّة لابن بشكوال ترجم فيها لأعيان أهل الأندلس وعلمائها وشعرائها . وله أيضا كتاب الحلة السيرة في تراجم بعض أعيان الأندلس والمغرب منذ الفتح إلى عصره . وهو كتاب قيم جدًا بالنسبة إلى التراجم وتاريخ الطوائف وتاريخ الأندلس في القرن 12/6 .

ولهذا العالم مؤلفات أخرى(67) بديعة ، منها : معادن اللّجين في مراثي الحسين . يقول مخلوف في شأنه : (ولو لم يكن له من التّأليف إلّا هو لكفاه على علو درجته في العلوم وسمو رتبته(68) . وله كتاب آخر في منتخب الأشعار سمّاه : قطع الرياض ، وله كتاب : هداية المعترف في المؤتلف والمختلف ، وله المعجم في أصحاب أبي علي الصديقي : وهو يشتمل على ثلاثمائة وخمسين ترجمة لطائفة من علماء الأندلس(69) ، وتحفة القادم ترجم فيها للشعراء بالأندلس ، ودرر السمط في خبر السبّط يتحدث فيه المؤلّف عن آل البيت : وهو الكتاب الذي أظهر فيه مؤلّفه تشييعه

---

(65) يوسف أنشباخ : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين تعريب محمد عبد الله عنان ، الطبعة 2 ، القاهرة ، 1958 ، ص 505 .

(66) عبد الله أنيس الطَّبَّاع : كتاب الحلة السيرة . ص 17 ، ص 153 .

(67) حسين مؤنس : الحلة السيرة ص 46—54 ، وكذلك دائرة المعارف الإسلامية الطبعة الجديدة: 66/3 .

(68) شجرة الثور ج 6 . ص 196 .

(69) نفس المصدر .

لعلي بن أبي طالب وهاجم فيه الأمويين الستة بشدة (70) . ومن هذه المؤلفات أيضا كتاب : إعتاب الكتاب ، كتبه ابن الأثير لما أعفى من منصبه وأبعد عن القصر وألزم بالإقامة الجبرية في داره ، وهو كتاب تاريخي أيضا ترجم فيه المؤلف لكتاب تعرضوا لغضب الملوك والسلاطين والخلفاء ثم حلت بهم نعمة الرضى فأعجبوهم ، وهو الكتاب الذي استشفع فيه مؤلفه بولي العهد الحفصي فغفر الأمير له وأقال عثرته (71) .

وإذا نظرنا بدقة في كتب ابن الأثير التي وصلتنا وهي ستة، والكتب التي ضاعت وهي تسعة وثلاثون ، يمكننا أن نلاحظ أنها ركزت على أربعة محاور رئيسية هي الحديث والأدب والتاريخ والتراجم . ويمكننا أن نلاحظ أيضا أن ميدان ابن الأثير الحقيقي كان التاريخ والتراجم . وكتبه الثلاثة الباقية في هذا الفن تشهد بمقدرته وهي : الحلة السيرة والتكملة لكتاب الصلة ، والمعجم في أصحاب أبي علي الصديقي (72) .

إن ابن الأثير كان عالما مؤلفا ، ومدرسا قديرا ، وشاعرا عظيما . ولهذا السبب يمكننا أن نقرر أنه شارك مشاركة فعالة ومباشرة في النهضة التي انبثقت في تونس منذ العقد الثالث من القرن 13/7 . فكتبه كانت متداولة بين الناس قبل مقتله وبعده . وشعره أيضا كان مرويّا في كامل المغرب العربي وكذلك الأندلس . إن الأوصاف التي بُعث بها عالمنا في القسم الأول من هذا البحث لا تدع أي شك في مكانته . أضف إلى تلك الدروس التي كان يلقاها أمام طلبته في بجاية ثم في تونس ، فقد سجلها هؤلاء الطلبة في مؤلفاتهم ورحلاتهم وخلدوها إلى اليوم . لقد كان ابن الأثير يدرس بجامع الزيتونة . وكانت كتبه من بعده تدرس في الجوامع وحلقات العلم ، منها كما — يذكر العبدري — كتاب درر السمط في خبر السبط (73) . ومن تلاميذ ابن الأثير سواء في بجاية أو في تونس ابن رشيد . وقد أثنى هذا الطالب على أستاذه في رحلته ، وكذلك درس عليه أبو عبد الله التجاني قريب صاحب الرحلة وأجازه أيضا (74) .

كان لابن الأثير تأثير ملموس في محيطه حيث كانت له ثقافة علمية باهرة ، عليها قامت شخصيته العلمية والأدبية الفذة . وقد طبع عصره بنشاطات علمية ومؤلفات قيمة

(70) دائرة المعارف الإسلامية الطبعة الجديدة : 3 / 66 .

(71) ابن خلدون : العبر . ج 6 . ص 654 .

(72) حسين مؤنس : الحلة السيرة ص 48 — 57 .

(73) العبدري : الرحلة . ص 126 .

(74) شجرة النور ج 1 . ص 196 .

سواء في العلوم أو في الأدب أو في الشعر أو في التاريخ والتراجم أو في غيرها . وامتازت كُتبه بالدقة والإتقان بسبب ملكته التاريخية الواضحة . وهو (واحد من أعلام مؤرخي العلم في الأندلس ومرجع من المراجع التي لا يستغنى عنها مؤرخ خلال القرنين السادس والسابع الهجريين خاصة) (75) .

لقد كان ابن الأَبار (مؤرخا فحلا واسع الاطلاع نافذ النظر صادق الحكم ، ومادة التَراجم لديه متعادلة من حيث القيمة والغزارة والأصالة ، غنيّة بكل ما ينفع المؤرّخ) (76). ويضيف حسين مؤنس بعد هذا الحكم قوله : (ولا أذكر أنني قرأت لغير ابن الأَبار في الأندلس شيئا يدلّ على سعة العلم على هذه الصورة . فهو متمكّن غزير المادة سواء أكتب عن خلفاء بني العباس أو خلفاء الفاطميين أو أمراء الأندلس وخلفائها أم أمراء الطوائف ومن عاصرهم . وهو ليس غزير المادة فحسب ، بل ناقدا لا يمرّ بخطأ في تاريخ أو اسم إلا استدرك عليه . وتبدو منه بدوات هنا وهناك تدلّ على أنه بالفعل من أعلم الناس بتاريخ المسلمين السياسي والعلمي والأدبي) (77) .

أما تأثيره في المجال الشعري في تونس فإنه متأكد وقصيدته السّينية التي ألفها بين يدي أبي زكرياء الحفصي كانت ذائعة الصّيت في تونس وفي معظم العالم الإسلامي

ويكفي أن نشير هنا إلى تأثيرات ابن الأَبار في الشعر بمثال واحد أورده محمد مخلوف ذكر فيه أن قصيدة ابن الأَبار السينة المشهورة كانت محلّ نقاش وتحليل ونقد من طرف الأدباء والنقاد ، وعارضها بعض الشعراء . ودافع عنها أبو إسحاق التّجاني بكتاب ألفه خصيصا لهذا الغرض وهو كتاب مؤازرة الوافد ومبارزة الناقد في الانتصار لابن الأَبار (78) . وبصفة عامّة يعتبر ابن الأَبار (أكبر مصنّف لسعاجم الرجال أنجبته الأندلس) (79) .

---

(75) حسين مؤنس : الحلة السرياء ص 51 .

(76) المصدر السابق ص 53 .

(77) المصدر السابق ص 53 .

(78) شجرة النور ج 1 ص 195 .

(79) حسين مؤنس : الحلة السرياء . ص 53 .



ومما لا شك فيه أن هذه القيمة العلمية التي يتمتع بها في نظر العلماء والطلبة في السابق ، والمستشرقين وغيرهم اليوم كانت نتيجة لنبوغه ونتاجه الفكري ، فقد كان (يمتاز بملكة نقدية صحيحة قوية ، إلى جانب عاطفة جياشة تذكّرنا بفحول الشعراء العرب القدامى ، وأسلوبهم في الحياة والإحساس وهو شيء نادر بين معاصريه...) (80) .

عاش ابن الأبار ثلاثا وستين سنة هجرية : اثنتان وأربعون منها في الأندلس والباقي في تونس ولم يسعد لا في هذه ولا في تلك ، كما يقول حسين مؤنس ( ... فأما في الأندلس فقد عاش مروّع السرب يحوم فوقه شبح الموت في كل حين ... ثم فقد وطنه وخرج بما حملت يده إلى المغرب (تونس) حيث تلقفه الأعداء وأعانهم على نفسه بسوء خلقه وتطلّعه إلى الرذائل والجاه . فلم يسعد في وطنه الجديد ولا هداً باله وانتهى أمره إلى هذه النهاية الفاجعة) (81) .

### من الطّريف في دنيا التّأليف، كتاب :

\* عبد العزيز العروي : شاهد عصره : للأستاذ محمد التّركي (بالفرنسية. نشر دار التّركي للنشر) جمع فيه المؤلّف — الذي تعرّف على العروي عن كُتب — وثائق عديدة من تونس وفرنسا أهمّها مقالاته الصحفية وأسماره الإذاعية، إضافة إلى أقوال من عمل معه في الحقل الإذاعي ومن عاشره من أفراد أسرته وأصدقائه. فجاء الكتاب مرآة تعكس حياة المترجم له منذ صباه إلى حين وفاته بنفس الدقة التي كان هو يَصوّر بها المجتمع التونسي بكلّ شرائحه في الثلاثينيات وما بعدها.

(80) الطّباع : كتاب الحلة السّراء ص 112 .

(81) المصدر السّابق ص 46 .